

5- الإيمان بالصراط وصفته ومكانه

[والصراط منصوب على متن جهنم، وهو الجسر الذي بين الجنة والنار، يمر الناس عليه على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كالمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو عدوا، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يزحف زحفا، ومنهم من يخطف خطفًا ويلقى في جهنم؛ فإن الجسر عليه كلابب تخطف الناس بأعمالهم] أخرج الحديث في ذلك: البخاري برقم (7439) في التوحيد، باب: "قوله الله تعالى: { وَجُودَةٌ يَوْمَئِذٍ تَأْتِرُهُ }". ومسلم برقم (183) في الإيمان، باب: "معرفة طريق الرؤية" عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. (الشرح) * قوله: (والصراط منصوب على متن جهنم، وهو الجسر الذي بين الجنة والنار، يمر الناس عليه على قدر أعمالهم...) من الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بما بعد البعث، ومن جملة ما بعد البعث: الصراط، وقد ورد ذكره في السنة وإن لم يصرح به في القرآن، قال بعضهم: إنه مذكور في القرآن بلفظ غير صريح وهو الورد المذكور في قوله تعالى: { وَإِنْ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا } [مریم: 71] قيل: إن ورود الناس كلهم يتمثل في مرورهم على هذا الصراط. ولكنه ورد صراحة في السنة في أحاديث متفق عليها أو محققة الصحة، وإن لم تكن متفقا عليها، فلما كان كذلك صدقها أهل السنة، واعتقدوا ثبوت ما جاء فيها، وأدخلوها في جملة عقائدهم. وذلك لأن الأحاديث الصحيحة الثابتة تفيد اليقين، فتدخل في جملة الاعتقاد، وإن خالف في ذلك من خالف من طائفة أهل الكلام الذين قالوا: إن الأحاديث الآحادية لا تفيد اليقين، عللوا هذا بقولهم: إن أحاديث الصراط لم تبلغ حد التواتر فلا يُعتقد مدلولها؛ وذلك لأنهم ردوا أحاديث أصح منها وأكثر، مثل أحاديث نزول الرب كما يثبته في كل ليلة كما ورد في الأحاديث الصحيحة الثابتة، ومع ذلك ردوها؛ لأنها أخبار آحادية ولأنها في العقيدة، والعقيدة لا بد فيها من اليقين والأخبار المتواترة ونحوها. فيقال لهم: كذلك أحاديث أحوال الآخرة، أتمت معتقدونها وتصدقوا بمدلولها، فتؤمنون مثلا وتصدقون بأحاديث تطاير الصحف والحوض، وأحاديث الصراط وأحاديث الفطرطة وما أشبه ذلك، وإن لم يبلغ بعضها حد التواتر فتصدقون بذلك، فقد فرقتهم بين مئمانتين. والحاصل أن من جملة الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بالصراط والصراط كما ذكر منصوب على متن جهنم، وهو جسر بين الجنة والنار، أو أنه على متن النار يمر الناس عليه في طريقهم وعبورهم، فيمرون على النار. فالمؤمن قوي الإيمان لا يحس بحرارة النار، وكأنه ما مر عليها، حتى ورد في بعض الآثار أن النار تقول: جُرُّ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي أوردته الهيثمي في مجمع الزوائد (10 / 360) وقال: رواه الطبراني وفيه سليم بن منصور ابن عمار وهو ضعيف، ولذلك لم يجزم الشارح حفظه الله بثبوته. وذلك في أثناء هذا العبور، فيمر الناس على هذا الصراط على قدر أعمالهم في الدنيا، وعلى قدر تمسكهم بالصراط المستقيم في الدنيا، فإن هنا صراطا مستقيما في الدنيا وصراطا مستقيما في الآخرة، إلا أن صراط الدنيا معنوي، وصراط الآخرة حسي، فالذي يتمسك بالصراط المعنوي، يوفق للسير والسلوك على الصراط الحسي. والصراط المعنوي هو الذي نسال الله في صلاتنا أن يهدينا نقول: { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } [الفاتحة: 6] وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله: { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا قَائِمُوهُ } [الأنعام: 153] تقدم في الآيات إرشادات وأوامر ذكر الله تعالى أن هذه الإرشادات من الصراط الذي أمر الله الناس بأن يسلكوه فقال: { وَأَنَّ هَذَا } يعني هذه الإرشادات وهذه الأوامر التي أولها قول الله تعالى: { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا } [الأنعام: 151] إلخ الآيات. ذكر في هذه الآيات إرشادات: أولها: النهي عن الشرك، وثانيها: الأمر بالإحسان إلى الوالدين. وثالثها: النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر. ورابعها: النهي عن قُرْبَانِ الفواحش ما طهر منها وما بطن. وخامسها: النهي عن قتل النفس بغير حق. وسادسها: النهي عن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن. وسابعها: الأجر بإفناء المكابيل والموازن بالقسط. وثامنها: الأمر بالعدل في الأقوال والأفعال ونحوها، إلى أن تمت هذه الإرشادات وأتمها الله تعالى بقوله: { وَبَعِّدْهُمُ اللَّهُ أَوْفُوا } [الأنعام: 152] وهذا هو الأمر التاسع ثم الأمر العاشر قوله: { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا قَائِمُوهُ } [الأنعام: 153]. فهذه الأشياء هي الصراط المعنوي الذي في الدنيا، فالذي يكون عاملا بهذه الأوامر وتاركًا لهذه المحرمات، هو الذي يكون مهتديا على الصراط المستقيم. وقد ذكر الله تعالى أنه صراط المُتَعَمِّعِ عليهم. وفسر الذين أنعم الله عليهم بقوله تعالى: { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّاهِدِينَ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } [النساء: 69]. هؤلاء هم أهل النعمة الذين نقول عنهم في صلاتنا: { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } [الفاتحة: 17] فالذي يسلك طريق هؤلاء، ويعمل بأعمالهم، ويتبع إرشاداتهم، ويسير على نهجهم، ويقتفي سنة الأنبياء والخلفاء الراشدين والصحابة المهديين والشهداء الصالحين، وسلف الأمة وأئمتها المهديين، ويسلك طريقهم سواء في الأعمال أو في الاعتقادات، فهذا من الذين اهتدوا وساروا على هذا الصراط المعنوي، فإذا وفق العبد لهذا الصراط وتجنب طريق أهل الغضب وأهل الضلال؛ فإنه يسير في الآخرة على الصراط الحسي سيرا مستقيما، لكن على قدر تمسك الناس. وذلك أن تمسك الناس في هذه الدنيا بالصراط ويسيروا عليه مختلف، فمنهم من يكون سيره بطيئا، بحيث إنهم في الدنيا يُجَلَوْنَ بكثير من الواجبات، ويرتكبون كثيرا من المحرمات ويقصرون ويخالفون في شيء من الاعتقادات، فيكون سيرهم في الدنيا سيرا ضعيفا. ومنهم من يكون متوسطا فيكون محافظا على الواجبات، وتاركًا للمحرمات، وإن لم يحافظ على السنن والمندوبات وإن لم يترك المكروهات والمباحات ونحوها، فهذا سيره على الصراط الأخرى أقوى من الأول. وهكذا، من كان أتم تمسكا بالصراط الدنيوي المعنوي بأن يكون مثلا محافظا على الواجبات، وأتيا للمستحبات، وتاركًا لجميع المحرمات، وتاركًا للمكروهات ولبعض المباحات، فهذا هو الذي يكون سيره سريعا غاية السرعة على ذلك الصراط المستقيم الذي يُصَبُّ على متن جهنم. وقد ورد في أوصاف الصراط الأخرى أوصاف كثيرة، ولكن بعضها لم يثبت، وقد ورد في أحاديث صححتها بعضهم ما يدل على دقته وجرارته؛ فورد أن الصراط الذي يسير الناس عليه: أحر من الجمر، وأنه أدق من الشعرة وأحد من السيف لكن بعض ذلك لم يثبت، وغالبه يكون من القصاص، لكن بعض الروايات التي ورد فيها أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف أخرجه أحمد في المسند (6 / 110) وفي سننه ابن لهيعة. وذكره مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري برقم (183) في الإيمان. قلت: وهو مما لا يقال بالرأي فله حكم الرفع والله أعلم. صححتها بعض العلماء، وكذلك وصفه بأنه أحر من الجمر قد رواه بعض العلماء. فعلى كل حال فإن هذا يدل على أن هذا الصراط في غاية من الدقة والحرارة، ولكن يُثَبِّتُ الله عليه أهل الإيمان حيث ثبتوا على أعمالهم وعقائدهم في الدنيا، فثبتهم على هذا الصراط في الآخرة. وهكذا أيضا لما كانوا متمسكين بالأعمال الصالحة في الدنيا، كان تمسكهم سببا في سرعة قطعهم لهذا الصراط بسرعة. فقد روي في بعض الآثار في وصفه أن طوله مسيرة ألف عام صعودا واستواءه مسيرة ألف عام، وأن الهبوط منه أيضا مسيرة ألف عام. وإذا كان كذلك فمتى يقطع الذي يسير سيرا معتادا؟ ولكن لما كان الذين رزقهم الله الأعمال الصالحة والاستعداد للقاء الله تعالى قد كملوا ما طلب منهم؛ رزقهم الله سرعة السير عليه، فذلك ذكر في هذه الأحاديث أنهم يسرون عليه سيرا سريعا، فمنهم من يمر كالبرق. قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: { وأي شيء كالبرق؟ قال: "ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفه عين؟" أخرجه مسلم برقم (195) في الإيمان، باب: "أدنى أهل الجنة منزلة". عن حذيفة رضي الله عنه. فلا تراه قد طهر إلا ويختفي في لحظة وفي طرفه عين. ومنهم من يمر كالريح، والريح معلوم سرعة سيرها فإنها تقطع مسافات كبيرة في لحظات فإنها تأتي من الشمال مثلا ثم لا تلبث أن تمر على بلاد كثيرة في تلك الجهة، حيث إن الله تعالى يُسَيِّرُها كيف يشاء. فمن الناس من يمر كهذه الريح في سرعتها وانطلاقها، ومنهم - كما في بعض الروايات - من يمر كالمح البصر، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، والفرس أيضا سريع السير؛ لشدة جريه؛ يقطع المسافات الطويلة في زمن قصير. ومنهم من يمر كركاب الإبل، كالذين يركبون الدواب: على الإبل، ومنهم من يمشي مشيا على الأقدام، ومنهم من يزحف زحفا على يديه، أو على رجليه، أو على مقعده. ويسير الناس أيضا على هذا الصراط على قدر أنوارهم، وقد ورد في بعض الآثار أنهم يُعْطَوْنَ أنوارا يسرون بها. يقول الله تعالى: { يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَافِقُونَ وَالْمُتَفَقِّهَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُوا تَتَّقِينَ مِنْ تَوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ } [الحديد: 13] وذلك أنها تقسم عليه الأنوار، فإذا ساروا قليلا؛ انطفأت أنوار المنافقين وقالوا للمؤمنين: أعطونا قبسا من نوركم، فإذا قالوا ذلك قالوا لهم: ارجعوا حيث قسمت الأنوار اطلبوا نورا لكم، فيسير المؤمنون على هذا الصراط على قدر أنوارهم التي أعطوها. يقول المؤمنون: { رَبَّنَا أَنْعِمْنَا لَنَا نُورًا } [التحریم: 8] وذلك عندما يرون نور المنافقين قد انطفأ يدعون الله بقولهم: { رَبَّنَا أَنْعِمْنَا لَنَا نُورًا وَاعْفُ رُبَّنَا } فمنهم من يكون نوره كالجيل بضئ له مد بصره بحيث لا يخفى عليه شيء مما أمامه، ومنهم من يكون دون ذلك، حتى ورد في بعض الأحاديث أن منهم من نوره على رأس إبهامه؛ ينطفئ ساعة ويتبدد أخرى، فإذا اتقد قدم رجليه، وإذا انطفأ وقف. فسرعة سيرهم وبطؤه وقوة أنوارهم وضعفها، يرجع إلى أعمالهم في الدنيا. ثم ذكر أيضا أن منهم المخطوف والمُلْقَى في النار، حيث ورد في الحديث قول النبي صلى الله عليه وسلم: { ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم } فلا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعواهم اللهم سلم سلم، ويقول: { وعلى جنبتي الصراط كلابب مثل شوك السعدان، تخطف من أمرت بخطفه، ففاج مُسْتَلَمٌ، ومخدوش ومكردس في النار } أخرجه البخاري برقم (7437) في التوحيد، باب: "قول الله تعالى: { وَجُودَةٌ يَوْمَئِذٍ تَأْتِرُهُ }" ومسلم برقم (182) في الإيمان، باب: "معرفة طريق الرؤية". عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. فمنهم من ينجو ويسلم بفضل الله تعالى عليه، ومنهم من يخدش بأن يئاله ما يناله من تلك العقبات ومن تلك الضربات ونحوها. ومنهم من تخطفه تلك الكلابب. والكلابب هي حديد. معكوف رأسه محدد يجتذب به اللحم إذا ألقى في النار، فتلك الكلابب كثيرة الرعوس ومثلها النبي صلى الله عليه وسلم بشوك السعدان لكثرة رعوسه المحددة إلا أنه قال: { غير أنه لا يعلم قدرها إلا الله } . فتخطف من أمرت بخطفه، فإذا اختطف الذي أمرت بخطفه فلا شك أنه يسقط، وليس تحته إلا النار والعياذ بالله، فالذي ينجو من هذا الصراط هو الذي ينجو من العذاب ولا يدخل النار أصلا، والذي يقع فيها هو الذي يقع في العذاب.